الفصل الأول

المكتبة المدرسية: نظرة تاريخية

لقد بلغت الحضارة الإسلامية أوج مجدها في العلم والمعرفة والحضارة والازدهار يوم أولت اهتمامها بإنشاء المدارس من أجل تعليم الناس جميعا، وبها أي (بهذه المدارس) ألحقت المكتبات وهو الشيء الطبيعي المكمل لهذا الرقي والازدهار.

ومع معرفتنا بأن هذه الخطوة جاءت متأخرة نسبياً، حيث أن المسجد كان المكان الطبيعي للتعليم، كما كانت الجوامع والكتاتيب أيضا، إلا أن بناء المدارس جاء في مرحلة متأخرة من مراحل الحضارة الإسلامية.

وتقول النصوص التاريخية أن أول من أسس مدرسة في الإسلام هو نظام الملك وزير السلاجقة الشهير في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري.

إلا أن بناء المدارس بدأ شيئاً واضحاً في عدد من المدن الكبرى شرقي الإمبراطورية الإسلامية مثل بغداد وأصبهان ونيسابور والري ومرمر وغيرها، وأشهرها جميعاً نظامية بغداد، التي تخرج منها عدد كبير من علماء العالم الإسلامي حتى عصر المغول.

وأسس نظام الملك مدرسته هذه في بغداد سنة ١٠٦٥م وافتتحت رسميا

سنة ١٠٦٧م، وقد خصصت منذ اللحظة الأولى لتدريس السنة وخاصة المذهب الشافعي، وأضاف اليها نظام الملك علم الكلام، وقد الحق بها مكتبة غنية منظمة زودها الملك بكل غريب ونادر.

فقد ذُكر أن عبد السلام القزويني أهدى نظام الملك أربعة أشياء فريدة في بابها، منها غريب الحديث لإبراهيم الحزمي بخط أبي عمر بن حيوه في عشرة مجلدات، فوقفه نظام الملك على طلاب المدرسة النظامية ببغداد. وقد تخرج في نظامية بغداد خاصة عدد كبير من شيوخ العلماء وأكابرهم، وأشهرهم الغزالي الذي درس فيه مدة تزيد عن السنتين، وكذلك درس فيها ابن شداد، الذي ألف كتاب السيرة اليوسفية، أو كما تعرف بسيرة ابن شداد، وهي ترجمة حياة صلاح الدين الأيوبي وما قام به من أعمال، وقد زارها ابن جبير وظلت شامخة لم تمس بعد الغزو المغولي.

وزارها الرحالة المسلم الشهير ابن بطوطة عام ١٣٢٧م. كذلك كان كثيرٌ من العلماء، يوقفون كتبهم على النظامية، فقد أوقف محب الدين بن البخار صاحب ذيل تاريخ بغداد خزانتين من الكتب للنظامية، وكان ذلك في النصف الأول من القرن السابع الهجري وقيمة هذه الكتب ألف دينار وهناك مدارس أخرى أنشئت في بغداد قبل سقوطها بيد المغول٦٥٦هـ ولعلها من أفخم المدارس التي أُنشئت والتي عُرفت باسم مؤسسها الخليفة المستنصر بالله العباسي، وإن وصف المؤرخين لهذه المدرسة، وللتكاليف التي أُنفقت عليها والعناية والرعاية والاهتمام التي أُحيطت بها يعطي الانطباع، أنه لم يبق حتى زماننا ما هو أجمل ولا أفخم منها، وكان الخليفة المستنصر محبا للآداب مشجعاً عليه مقرباً لأهله.

وأشير هنا، إلى أن بناء المدارس انتشر في الإسلام انتشاراً هائلاً، فقد امتلأت مدن سوريا ومصر والعراق بالمدارس والحقت بها مكتبات، فعلى

سبيل المثال نذكر، نور الدين الشهيد الذي بنى مدرسة في دمشق والحق بها مكتبة، وكذلك فعل صلاح الدين وأفراد أسرته من بعده، والشيء نفسه قام به عدد كبير من أمراء المسلمين، وكبرائهم، وعلمائهم، وأغنيائهم.

فالقاضي الفاضل وزير صلاح الدين أسس مدرسة أسماها الفاضلة في القاهرة، وأودع فيها نحو ألف مجلد مما أخذه من خزائن الفاطميين. ويذكر ياقوت الحموي عدة مدارس في مرو في زمانه تحوى مكتبات ضخمة، وكانت أبوابها مفتوحة للدرس، والمطالعة، والتزود بالعلم والمعرفة.

هذا ويعتبر العصر العباسي عصر الإبداع في الحضارة الإسلامية، وفيه نضجت الحضارة الأسلامية وأنشئت العديد من المدارس التي انتشرت في أرجاء العصر العباسي، وألحق بها مكتبات اشتملت على أنواع كثيرة من أنواع المعرفة.

ومن المكتبات الملحقة بالمدارس أيضا في بغداد، مكتبة ابن جبيرة، ومكتبة مدرسة الفاخرية، ومكتبة مدرسة الجوزية، ومدرسة السعودية، ومدرسة عبيدالله.

وكان في دمشق نحو ثلاثين مدرسة في القرن الخامس الهجري يدرس في تلك المدارس الأئمة من الأعلام ومن أشهر مدارسها دار الحديث النورية والنورية الكبرى والصلاحية والعادلية والظاهرية وغيرها.

وكانت هذه المدارس للتعليم العالي، وأما الكتاتيب والمدارس الأولية فهذه أكثر من أن تُحصى، ولكل منها مكتبة خاصة بالمواد التي تدرس. كما كان في مصر مدارس كثيرة كالمدارس الصالحية والصاحبية وغيرها. وقد ذكرها المقريزي في خططه.

وقد اشتهرت عدة مدارس في مدينة القدس، وفي حلب، وحماة،

وحمص، وبعلبك وغيرها.

وفي عصر المماليك البحرية أُنشيء العديد من المدارس في القاهرة، ووجدت في كل مدرسة مكتبة خاصة بها، نذكر منها المكتبة الظاهرية بخط بين القصرين التي أسسها الظاهر بيبرس البندقداري، وقد تم بناؤها (٦٦٠ - ٦٦٢) ووقف بها خزانة كتب جليلة تشتمل على أمهات الكتب في سائر العلوم، ورتبت بها عدة دروس للفقه الشافعي، والحنفي، والحديث، والقراءات، وكانت من أجل مدارس القاهرة، إلا أنها قد تقادم عهدها.

كذلك أسس الظاهر بيبرس المدرسة الظاهرية الجوانية بدمشق، وقد حوت نفائس الكتب والذخائر العلمية لدراسة المذهب الحنفي، والشافعي، والحديث.

وقد اعتبرها الرحالة ابن بطوطة من جملة مدارس الشافعية الكبرى، ولم يبق من كتبها إلا القليل، عندما اجتاح المغول بلاد الشام، وبسبب الاعتداء على أوقافها.

ولا زالت هذه المكتبة عامرة إلى يومنا هذا بأنفس المخطوطات، كدارٍ للكتب الوطنية، مثلها في ذلك مثل المدرسة الاقبغاوية بالقاهرة التي توجد فيها المكتبة الأزهرية الآن.

أما المدرسة الناصرية بجوار القبة المنصورية بخط بين القصرين، فقد كان السلطلان زين الدين كتبغا المنصوري قد بنى منها جزءاً ثم عُزل، فاشتراها الناصر محمد بن قلاوون، وبنى بجواره قبة، وكملت عمارتها سنة ٧٠٣هـ ووقف عليها الناصر محمد أوقافاً جليلة بمصر والشام وجعلها للمذاهب الأربعة.

ويقول المقريزي «وجعل بها خزانة جليلة عامرة من أجل الدارس، وقد

رتب بها شاهداً لخزانة الكتب ويضبط ما يؤخذ منها للاستعمال، بحيث لا تخرج الكتب من المدرسة».

وكان هذا النظام متبعاً في معظم مكتبات المدارس المملوكية، وكان يصرف له أي (الشاهد) كل شهر ثلاثين درهماً، أو ما يقوم مقامها من النقود.

وقد رتب بالمدرسة بواباً حافظاً محتاطاً في أمور المدرسة، أميناً على المكتبة من الداخلين والخارجين إليها مانعاً من يرتاب به، ومن يكثر الدخول لغير حاجة وهو يلازم حفظ الباب ليلاً ونهاراً، ويفتحه ويغلقه في الأوقات المعهود بها، ولا يترك الباب إلا لعذر.

وقد زودت المدرسة المنكوتمرية، التي أنشأها سيف الدين منكوتمر الحسامي، نائب السلطة بحارة بهاء الدين بالقاهرة ٦٩٨هـ بخزانة كتب لتدريس المذهبين المالكي والحنفي، وجعل عليها وقفاً ببلاد الشام.

وكان بالمدرسة الطيبرسية التي أسسها الأمير علاء الدين طيبرس الخازنداري ـ نقيب الجيوش في عهد السلطان لاجين ٧٠٩هـ لتدريس الشافعية والمالكية، وهي على يمين الداخل إلى الجامع الأزهر الشريف ـ خزانة كتب عظيمة.

كذلك وجدت بالمدرسة الملكية – نسبة إلى الحاج سيف الدين آل مالك الجوكندار الناصري الذي بناها ٧٠٩هـ تجاه داره بخط الشهيد الحسيني – خزانة كتب عظيمة، وعمل فيها درساً للشافعية وجعل لها عدة أوقاف، ويظهر أنها بقيت من أشهر مدارس القاهرة حتى عهد المقريزي.

وكان بالمدرسة الصاحبية، التي أنشأها الصاحب صفي الدين عبد الله ابن شكر في القاهرة بسويقة الصاحب للمالكية وتدريس النحو ـ خزانة كتب كما يقول المقريزي.

كذلك كان بالمدرسة السلطانية العظيمة، التي أنشأها السلطان أبو المحاسن حسن بن قلاوون بخط سوق الخليل بالقلعة سنة (٧٥٨ ـ ٧٦٤هـ) لدراسة المذاهب الأربعة والحديث والقراءات ـ مكتبة عظيمة، وصلت لها مجموعة من الكتب والمصاحف التي أوقفها السلطان المذكور على طلبة العلم الشريف بها.

ويظهر أن المدرسة السلطانية كان بها الكثير من كتب علم الحديث، وكتب اللغة، والنحو، وقد اشترطت وثيقة الوقف على مدرس الحديث أن يقوم بالتدريس من كتب الحديث المعتمدة ومن كتب الرفاق.

وكانت المدرسة الاشرفية، التي أسسها السلطان شعبان بن حسين سنة ٧٦٤ هـ وكملت عمارتها سنة ٧٧٧ هـ، من أفخر المدارس بناء وزخرفة، ولا شك أن مكتبتها كانت من أكبر المكتبات المدرسية المملوكية وزخرفت بالكتب النفيسة والمصاحف الشريفة، وهناك أيضا من مكتبات المدارس في العالم الإسلامي، المكتبات التي أنشأها المماليك الجراكسة في عصرهم، حيث انتشرت المدارس في عصر الجراكسة في القاهرة، وكانت معظم هذه المدارس بها خزانات عامرة بالكتب الفقهية، والعلمية، والأدبية، والمصاحف، والربعات الشريفة. ومن هذه المدارس مدرسة خانقاه الظاهر برقوق، التي أسسها سنة ٧٨٦ ـ ٧٨٨هـ في خط بين القصرين بالقاهرة، وكان بها سبعة دروس لأهل العلم أربعة منها على المذاهب الأربعة، وثلاثة للتفسير والقراءات.

وفي أواخر عهد المماليك الجراكسة، أسس السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغوري مدرسته الشهيرة بخط الجرابشيين بالقاهرة سنة ٩٠٨ ـ ٩٠٩ هـ، وكان بها خزانة كتب حوت من صنوف الكتب والمصاحف الشيء الكثير، ورتب فيها أمينا ثقة يقوم على خدماتها.

أمـا المدرسة التي أنشأها السيفي بن عبدالله بن عبدالكريم بن عمر الأشرف قانصـوه الغوري، المعروف بخط الجودرية بالقاهرة، التي كملت عمارتها في رمضان ٩٢١ هـ، فقد كان بها خزانة كتب، ولها خازن أو أمين. وأشير هنا إلى أن المكتبات في المدارس المملوكية كانت موضع اهتمام السلاطين والامراء على السواء، ولم تكن تهمل أو تترك مغلقة على ما فيها من الكتب، بل كانت محور النشاط التعليمي، ولم تكن للتعليم فقط بل كانت للتعليم وتحصيل العلم بالبحث والدراسة في الكتب نفسها، والنقل مما تحويه من مادة علمية ثمينة عظيمة القيمة.

وتذكر لنا إحدى الوثائق بأن مهمة المدرسة، هي أن تسهل على الطلاب الفهم وتحثهم على الاشتغـال بالعلم الشريف وتسلك به مسلك الإفـادة والتعليم وتسهيل ماصعب فهمه.

وكانت أيضا ـ مكاناً للرقي الفكري والإشعاع الروحي ومركزاً للمعرفة، ووحدة وظيفية لها غاية ورسالة حيوية، وكانت ثرواتها الضخمة من مجموعات الكتب في خدمة جمهور المدرسة من المدرسين والطلبة فقط بكل مالهم من مطالب، حيث أن الاهتمام بالمكتبة المدرسية لتحقيق فلسفة التعليم في العصر الوسيط باعتبارها المركزالفعال للنشاط المدرسي.

كما كانت المكتبـة ركنـاً أسـاسياً في التربية في هذه المدارس لا يمكن الاستغناء عنها، ولا يمكن إنكار فضلها لأنها كانت تسهم بقدر كبير في تأكيد فكرة التعليم الجامعي بمعناه الأصيل السليم.

ولأن أهم ميزة للتعليم الجامعي المملوكي في هذه المدارس هي الحرية التي كانت عنصراً رئيسياً متوفراً بدرجة كبيرة، والمناهج الدراسية المتخصصة والمرنة في آن واحد التي تكن مقيدة، أو محددة باستاذ المادة أو آرائه وشروحه

فقط، بل كانت تعتمد أولاً وقبل كل شيء على الكتب الموجودة بمكتبة المدرسة، والبحث فيها. وهكذا كانت المكتبة المدرسية مؤسسة اجتماعية تعليمية، لا تتقيد بمنهج مرسوم أو برنامج معين وتغلب عليها الصبغة الحرة بدلاً من الصبغة الرسمية في المدرسة، لأن خير تعليم هو ذلك الذي يستطيع الفرد أن يناله أو يحصله بنفسه أي التعليم الذاتي في جو تسوده الحرية والرغبة والميل، وهذا يؤدي إلى الاعتماد على الذات في البحث عن المصادر، ومن هنا تبرز شخصية الباحث.

يتضح لنا مما سبق، ما وصلت إليه مكتبات المدارس على مر العصور المختلفة، ومدى اهتمام المماليك والأمراء والحكام والعلماء والأفراد بها، والحرص على أن تكون بكل مدرسة مكتبة خاصة بها من أجل تسهيل عملية التحصيل لدى الطلاب، والدارسين، والمدرسين، ويدلنا ايضا على ما وصلت إليه الحضارة الإسلامية في النواحي التعليمية، والحرص على إيصال العلم للجميع.